التصوف... تراث ثقافي و هوية وطنية
الدكتور: بوشيخي علي – جامعة جيلالي ليابس –سيدي بلعباس

أصبح التصوف ظاهرة اجتماعية هذا ما تؤكده انتشار الزوايا والرباطات في الأرياف والقرى حيث كانت زوايا القران و العلم و التربية في الجزائر طيلة قرن و ثلث قرن من الاحتلال الفرنسي حصنا للثقافة الإسلامية و منها للغة العربية و مدرسة للتربية الدينية والوطنية و معقلا للمجاهدين و الأحرار الذين رفضوا الاستدمار وما يحمل من فساد . (1)

والجزائر كانت قلعة الصوفية كالطريقة القادرية ، التي تعتبر من أقدم الطرق الدينية والمنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المؤسس لكيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات وأتباعه من بعده الذين نشروا هذه الطريقة كسيدي بومدين الغوث وسيدي عبد السلام بن مشيش، الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الذي يعود إليه الفضل في تطوير مبادئ هذه الطريقة ومن أتباعه الشيخ الشاذلي من مدينة الشاذلة بتونس هذه الطريقة التي تفرعت إلى عدة طرق حسب المشايخ وميولا تهم كالجازولية، الزورقية، اليوسفية، الرازية، الشيخية، الحنصلية، الزيانية، الدرقاوية... والتيجانية المنسوبة إلى الشيخ احمد ابن مختار بن سامي التيجاني في عين ماضي بولاية الاغواط . كما كانت الجزائر أيضا مركزا لأعلام الفكر الصوفي والتي نذكر منها لا الحصر الولي الصالح الشيخ عبد الرحمن ابن محمد بن مخلوف الثعالبي ،والشيخ بن عبدا لكريم المغيلي و الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي و طريقة المدنيين ، ومحمد بن يوسف السنوسي ،هؤلاء المشايخ الذين جمعوا بين الإنتاج الفكري و السلوك الصوفي.

تعتبر الزوايا و الطرق الصوفية مؤسسات للتنشئة الاجتماعية و لها مكانة بارزة في مخيال الفرد الجزائري لما تلعبه من أدوار متعددة، كدورها الديني المتمثل في نشر الإسلام وتنظيم المراسيم الدينية و السفر للحج، كما تقوم بدور تعليمي رائد في نشر و حفظ القران و بناء المدارس العلمية وعلى الصعيد الاجتماعي تتولى توفير الإيواء في زوايا التصوف والإطعام أما الدور الاقتصادي يشمل بناء المجاري المائية و تنظيم المراعي.

فأصبح ظاهرة اجتماعية هذا ما تؤكده انتشار الزوايا والرباطات في الأرياف و القرى و كانت زوايا القران و العلم و التربية في الجزائر طيلة قرن و ثلث قرن من الاحتلال الفرنسي حصنا للثقافة الإسلامية و منها للغة العربية و مدرسة للتربية الدينية و الوطنية و معقلا للمجاهدين و الأحرار الذين رفضوا الاستعمار وما يحمل من فساد .

و الجزائر كانت قلعة الصوفية كالطريقة القادرية ، التي تعتبر من أقدم الطرق الدينية والمنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المؤسس لكيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات على مقادير الأوقات وأتباعه من بعده الذين نشروا هذه الطريقة كسيدي بومدين الغوث وسيدي عبد السلام بن مشيش، الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الذي يعود إليه الفضل في تطوير مبادئ هذه الطريقة ومن أتباعه الشيخ الشاذلي من مدينة الشاذلة بتونس هذه الطرية التي تفرعت إلى عدة طرق حسب المشايخ وميولا تهم كالجازولية،الزورقية،اليوسفية،الرازية،الشيخية، الحنصلية،الزيانية ، الدرقاوية(2)...والتيجانية المنسوبة إلى الشيخ احمد ابن مختار بن سامي التيجاني في عين ماضي بولاية الاغواط.

كما كانت الجزائر أيضا مركزا لأعلام الفكر الصوفي والتي نذكر منها لا الحصر الولي الصالح الشيخ عبد الرحمن ابن محمد بن مخلوف الثعالبي ،والشيخ بن عبدا لكريم المغيلي و الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي و طريقة المدنيين ، ومحمد بن يوسف السنوسي ،هؤلاء المشايخ الذين جمعوا بين الإنتاج الفكري و السلوك الصوفي.

تعتبر الزوايا و الطرق الصوفية مؤسسة للتنشئة الاجتماعية و لها مكانة بارزة في مخيال الفرد الجزائري لما تلعبه من أدوار متعددة، كدورها الديني المتمثل في نشر الإسلام وتنظيم المراسيم الدينية و السفر للحج،كما تقوم بدور تعليمي رائد في نشر و حفظ القران و بناء المدارس العلمية وعلى الصعيد الاجتماعي تتولى توفير الإيواء في زوايا التصوف والإطعام أما الدور الاقتصادي يشمل بناء المجاري المائية و تنظيم المراعي.

لا يزال التصوف يمارس حضوره في عصر التكنولوجيا، هذا المبحث في التراث الثقافيالإسلامي العربي الذي شغل أذهان الباحثين، فهو من القضايا المعقدة في تاريخنا الثقافي، الديني فالتصوف بصفته أسلوبا و منهجا يدين به الكثير من الناس على مستوى الأفرادو الجماعات هذا الأسلوب المعروف بالطرق الصوفية المنتشرة في كثير من بلاد المسلمين وتعد الجزائر من بين البلاد العربية الغنية بأعلام الفكر الصوفي التي تولي اهتماما كبيرا لبعث هذا التراث الثقافي و حفظه وإبرازه لإنعاش الذاكرة الجماعية لتعزيز شعورها بالانتماء لما يتعرض له الإسلام و المسلمين من هجمات تستهدف ثوابت الدين و قيمه و أسسه الفكرية، يستدعي منا وقفات ثقافية لأصحاب الفكر الصوفي الوطني للحفاظ على هذا التراث و إبرازه بصفته واجبا هاما لاسيما في ظل التغيرات الدولية و تيارات العولمة . و إن من حق الأجيال الناشئة أن تتعرف على مجال الفكر الصوفي الذي تمتلك فيه بلادنا كنوزا نادرة، لتزداد اعتزازا بأمجادها العلمية و الحضارية و تمكن الباحثين المختصين من الاستفادة منها و استغلالها لتعزيز مرجعيتها التاريخية و الثقافية . فالزوايا الجزائرية خير أمين على

الفكر الصوفي فقد حان الوقت لإبراز مآثر الطرق الصوفية و أعلامها و التعريف بها وفاءا لأصحابها ،واعترافا بمجهود اتهم الكبيرة المبذولة في حركة الإصلاح الديني و الاجتماعي و الاقتصادي و حتى السياسي و مساهمتهم في حركة البناء الاجتماعي و الثقافي والتربوي و التعليمي. ظلت كلمة أو لفظة التصوف أمرا نسبيا فلا يمكن محاصرتها أو التدقيق في معناها فاختلفت وتعددت الرؤى حول جوهر هذه اللفظة، فهي تارة منسوبة إلى صوفه فهو الاسم الذي يطلق على ذالك الرجل الغوث بن مر بن صوفه المتفرد في خدمة الله سبحانه و تعالى ببيت الله الحرام ،وتارة أخرى فهي منسوبة إلى الصوف لأنه لباس الأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: " البسوا الصوف و شمروا وكلوا في أنصاف البطون تدخلوا في ملكوت السماء." (3)

وقد ورد في ذلك من الشعر:

تشاجر الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف

ولست انحل هذا الاسم غير فتى صافي فصوفي حتى سمي الصوفي (4)

فبعض هذه الآراء تنص على أن الصوفية نسبة إلى صفاء إسرارها و نقاء أثارها و الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته وبعضها يرجع هذه اللفظة إلى الكلمة اليونانية " صوفي" و التي تعني الحكمة ومنها فيلسوف المحب للحكمة ،هذه اللفظة التي تشمل على العلوم النظرية و العلوم العملية،فاختلط التصوف بالمذاهب الفلسفية و من أهم أقطاب الفكر الفلسفي الصوفي محي الدين ابن عربي ،الكلابذي، ذو النون المصري و الحسين بن منصور الحلاج ...

ويذهب بعض الدارسين المتخصصين في علم التصوف ورجالاته إلى القول بان التصوف فلسفة حياة تهدف إلى السمو بالنفس الإنسانية أخلاقيا وتتحقق بواسطة حركات رياضية لفطم الشهوات عن النفس و تسام بالروح فوق كل ماديات الأرض .

فالمتصوف يتدرج عبر محطات من خلال الممارسة الرمزية والتجربة المسلكية المرتكزة على قواعد المعروفة باسم الأحوال والمقامات و أعلاها مقام اليقين، و أنواعه ثلاثة :

علم اليقين ظاهر الشريعة، وعين اليقين الإخلاص، وحق اليقين مشاهدة الفاعل الحقيقي على مثل ما يروى عن سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا).

ويشير الإمام ابن تيمية إلى أن الصوفية أصنافا حين يقول" وصارت الصوفية ثلاثة أصناف ،صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم". (5)

إن البحث في دلالات التصوف تستدعي منا التمعن في ماضيه الذي مر بعدة مراحل ليس على مستوى اللفظ و حسب بل على مستوى التطور في الوظيفة لذا يصعب على الدارس فهم التصوف قبل تطور الأديان، حيث ظهر التصوف كتيار منذ

القرن الأول الهجري إبان العهد الأموي مناهضا و رافضا للصراعات السياسية التي أفسدت صفاء الدين الإسلامي دعوا فيها الناس إلى التسوية ومحاربة النفس و مقاومة السلطة المستبدة .

فظهر الفكر الإسلامي إلى الوجود بنزول القرآن الكريم بالدعوة المحمدية المبنية على التوحيد

و الإيمان بجميع الرسل و الأنبياء، هذا الفكر تضمن كل من علم الكلام ومنهجه القائم على المناظرة و الخصوم و الذي يبحث في المسائل العقائدية، و الفلسفية الإسلامية التي عالجت القضايا المتسمة بالطابع العقلاني نظرا لاكتمال بنائه بعدما نهل العرب و تأثروا بالفلسفة اليونانية و الشرقية.

و بما أن التصوف الإسلامي روح الأديان و المذاهب ،هذا الفكر الذي كان مقتصرا في بدايته في(ق 6 -7-8هـ) على المدارس الخاصة و على نخبة معينة من المتعلمين في الحواضر الكبرى فكان بمثابة ظاهرة فردية بين الخالق و المخلوق وانتقل إلى التصوف الشعبي بالممارسة في القرن التاسع الهجري.

إن هذا النهج الإسلامي القويم يزداد وضوحا و رسوخا في بلادنا مما يحث على الارتياح

و الاعتزاز بأعلام الفكر الصوفي و الزوايا التي كانت و لازالت مركز إشعاع إسلامي و المغزى العميق من أحياء مآثر عظمائها هو التماس القدوة الحسنة من خلال إبراز القيم و المبادئ للمحافظة على أصالتنا والعمل لتجديد أنفسنا.

لقد تفطن الاستعمار إلى خطر تمسك الأمة بماضيها و أحيائها لمآثر أسلافها فعمل دائما على تشويه تراثه ، الذي لازال يقدم جهودا لإعادة صنع وبناء الموضوعات و المعطيات المعرفية و التاريخية لتحصين الذات من تأثير المعطيات الوافدة من الخارج فلا بد من ضرورة إعادة النظر في مفهوم التراث في مختلف أبعاده من اجل بناء الذات بأقصى ما يمكن من الإبداع .

ولقد لعب التصوف دورا بارزا في تطوير المعرفة الإنسانية و تراكمها فهو نموذج حقيقي ومعبر لحياة الإنسان التي بدورها تعكس جميع الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية للمجتمع فهو لغة قابلة للفهم و الاتصال و اختزال الخبرات و التجارب المتراكمة لتحدثنا عن الإنسان في محيطه الطبيعي و الاجتماعي وعن ثقافته و علاقته الاجتماعية .

فالتصوف حقلا دلاليا استهوى الكتاب والشعراء والموسيقيين والفنانين التشكيليين...و شيوخ الصوفية لا يزالون يؤكدون على ضرورة صياغة تقاليدهم و توجيهاتهم ووجدانياتهم في شكل قصائد من الشعر ، هذا الفن الشعري الذي انتقل من المغرب إلى المشرق خاصة في العصر الفاطمي، فالمتصوفة حملوا معهم دواوين الوشاحين المشهورين ولاشك أن محي الدين بن عربي الذي عاصر بن سناء الملك كان من الوشاحين الرواد الذين نقلوا هذا الفن عبر رحلته الطويلة الى بلاد الشام

.ويعتبر عصر ابن سناء الملك عصر المتصوفة الذين ينظمون معانيهم الصوفية في الموشحات. ابن عربي استخدم الغزل الصوفي الرقيق الذي تستغيه النفس الإنسانية وتقبل عليه بالفطرة وتأخذ ما فيه من رقة مستساغة ورمزية صوفية عجيبة وموسيقى مطربة، فارتبطت علاقة عضوية بين الشيوخ و بين الشعراء وبخاصة أصحاب الشعر الملحون. فالمتصوفون يتذوقون الموسيقى و ينشدون و يسمعون الألحان و آلات الطرب و كثير من الشعراء من هم متصوفون أمثال سيدي لخضر بن خلوف ، الحاج عيسى لغواطي، الشيخ عبد الرحمن المجدوب ، محمد بن مسايب هذا الشاعر الذي قام بقطيعة مع الحب الدنيوي و دخل في الحب الإلهي و استعمل اللغة و المفردات الباطنية . تداول النشاط الموسيقي في الزوايا هذا النشاط الموسوم بالسماع الصوفي، هذه الممارسة الموجهة للتربية الروحية والتي كانت دوما تصاحب المراسيم الاحتفالية بعيد المولد النبوي الشريف.هذا النوع الفني أصبح يتوفر على مادة شعرية يلحنها المنشدين لسماع نداء الحق من خلال الطرب و التسابيح و الأذكار مثل الطابع الصوفي العيساوي المبني على الممارسة المتجلية خاصة في التغني بالأشعار لاسيما مولاي إدريس وتلحين قصائد الشيخ يوسف الحنصالي،واستعمال الآلات الموسيقية تحت إيقاعات الدف والطبل في جلسات وحلقات الذكر.من خلال هذه الممارسة ظهرت الى الوجود عدة طبوع ومدارس فنية جزائرية منها الفن الشعبي الذي هو امتداد لظاهرة المداح الصوفي الذي كان يمدح عن الله تعالى وعن الرسول عليه الصلاة والسلام ، والصحابة والأولياء والصالحين، والمدرسة العيساوية . فإدا كان التراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة حسب راي المفكر حسن حنفي هذا المعنى الدي قارب ما ذهب إليه المفكر التراثي محمد عابد الجابري الذي يرى أن التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي ، ماضينا نحن أم ماضي غيرنا، القريب منه أم البعيد، ففي رأينا نحن بكل بساطة هو كل ميراث الماضي الدي نتمع به اليوم وننقله الى الاجيال القادمة وله خصوصية الفعل والتأثير في حياتنا، وعلى مخيالنا.

وإن إعادة الاعتبار للموروث الثقافي الصوفي المحدد لمعالم شخصيتنا القائمة على مبادئ التسامح هو الركيزة الأساسية لانسجام الأمة ومنبعا لترسيخ الهوية الإسلامية و تهذيب الروح في ظل العولمة بأبعادها الثقافية والاقتصادية التي تحاول أن تجعل من الكائن البشري آلة مربوطة بالعرض و الطلب ،الإنتاج و الاستهلاك آلة جوفاء من القيم الروحية الأخلاقية التي تشكل جوهر الإنسان الذي هو بحاجة إلى التربية والتهذيب و التعليم من اجل السمو و الارتقاء،هذا التراث الصوفي الذي هو منهل هويتنا و قيمنا المعنوية وما يحمله من ممارسات و أشكال التعبير و المعرفة و المهارات.فالجزائر تعد من أولى البلدان في العالم التي صادقت على المعاهدة الدولية لحماية التراث الثقافي اللامادي المعتمدة من طرف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، وعيا منها بكون التراث الثقافي ملكا للجميع وحمايته واجبة على

الجميع ،فحماية تراثنا هو حماية هويتنا .فمن أجل حماية وترقية وتثمين وإعادة بعث روح هذا التراث الثقافي الرمزي الذي يعبر عن مقومات الحضارة العربية والإسلامية وعناصرها المكونة لهوية الأمة وذاكرتها الجماعية، لابد من إجراءات وآليات لتحقيق ذلك:- تشكيل لجنة متخصصة لتوثيق التراث الصوفي و تدوينه وتسجيله (الشعر الشعبي، موشحات، أناشيد، أغاني أقاصيص...).

- تنظم ملتقيات ندوات للتعريف بهذا التراث و أعلامه للدراسة العلمية الممنهجة .
- انجاز دليل وطني لأمجاد الفكر الصوفي و أهم الزوايا ونشر أعمالهم لإثراء المكتبات ،وتمكين الباحثين من التعرف على أهم النتائج
- البحث عن المخطوطات التي تناول نختلف المواضيع حول التصوف
- تنظيم مسابقات محلية وطنية ودولية حول الفن الصوفي: لوحات صوفية، الإنشاد، ألحان، حلاقات الذكر
-تخصيص جوائز للمبدعين في هذا المجال.
-إصدار مجلة متخصصة.
- فتح موقع الكتروني على شبكة الانترنيت للتعريف بالفكر الصوفي و أعلامه.
- إعادة الدور الفعال للزوايا من اجل توحيد المجتمع و توجيهه نحو الاعتقاد الصحيح من ناحية الفكر والممارسة، وتقويم سلوك الفرد من خلال المعرفة الصحيحة لتعاليم الدين الإسلامي حتى يصبح فردا فعالا في المجتمع،هذه الزوايا التي قاومت ولازالت تقاوم حملات التبشير فلا ننسى أن تأسيس الدولة الجزائرية من طرف الأمير عبدا لقادر كان بفضل الزاوية القادرية بالغرب الجزائري بولاية معسكر.

المراجع:

1. **جواد المرابط** ،التصوف والامير عبد القادر،عن مجلة وزارة الثقافة،ص39
2. **بودويا بولحيا**، التصوف في بلاد المغرب العربي ،دار القدس العربي،2009 ،ص26
3. **تفسير القرطبي** تحقيق البيروتي دار احياء التراث العربي ،1966ص10
4. **ابو بكر الكلابذي** ،التعرف لمذهب أصل التصوف ص 21
5. **احمد النجار**،ابن تيمية والتصوف،دار القبس سوريا،2006،ص43

.